

توطئة

تعد قضية الخيال قضية خطيرة تصدّى لها بعض المستشرقين الألمان في دراساتهم من أمثال هانيري ش ويعقوبي وفاجنر . وقد كشفت الدراسات الحديثة أن المستشرقين تفاوتوا في موقفهم من هذه القضية، فمن قائل بسطحية الخيال في الشعر الجاهلي، ومنهم من راح إلى نفي الخيال عن الشعر الجاهلي نفيًا مطلقاً، ومنهم من قال بوجود أمثلة - قليلة للخيال وذلك ليس غريباً لأنهم ظلوا إلى زمن قريب يعدّون الشعر العربي القديم مادة وثائقية يتعرفون بها على حياة العرب الجاهليين في جميع مستوياتها من دون النظر إليه على أنه فن . وإنهم في غالبيتهم لم يُعملوا قرائحهم في تفهم الشعر الجاهلي ونصوصه الشعرية الفنية بصورة شاملة ووافية، أو بالتقصي العلمي عن الحقائق وإثبات الرأي الصريح والصحيح من دون تعصب ديني أو عرقي أو مذهبي أو قومي للخروج بالفائدة العلمية التي تتال أدبنا وتراثنا، وتضيف إلى بحثهم أصالة العلم ق العلمي في الدراسة الأكاديمية والبحثية خدمة للحضارة الإنسانية واعترافاً بجذورها الأصلية ومنابعها الثقافية الحقّة.

ولم يهتم معظم المستشرقين بتحديد مفهوم واضح للخيال، وإنما أشاروا إلى بعض مظاهر الخيال في الشعر مثل الأنسنة وإسقاط المشاعر على الطبيعة والحديث إلى الحيوان . لكن "هانيريش" حاول أن يحدّد مفهوم الخيال من دون الاعتماد على النظريات الغربية، وإنما اعتمد على آراء حازم القرطاجني^(١) في كتابه "منهاج البلغاء" الذي يرى أن الشعر العربي يقع في إطار الاختلاق الامكاني لا في الإطار الامتاعي، كما في أساطير اليونان ورموزهم.

(١) ينظر: منهاج البلغاء. نقلاً عن: قضية الخيال في الشعر الجاهلي (بحث) د. موسى رابعة:

آراء المستشرق "رودوكناكيس"

تكاد تكون دراسة المستشرق الألماني "رودوكناكيس" عن الخنساء وشعرها الرثائي (Al-Hansa und ihre Trauerlieder (Wien, 1902) من أوائل الدراسات الألمانية التي توجهت الى التعامل مع النص الشعري الجاهلي تعاملًا يقترب من الدراسة الفنية، إذ أن المستشرقين كانوا عادة ما يتخذون من الشعر الجاهلي أدلة ووثائق يتعرفون منها على طبيعة الحياة العربية قبل الإسلام، فتحول الشعر من حيث هوفن إلى مصدر للمعلومات الاجتماعية والتاريخية وغير ذلك.

يعتمد المستشرق "رودوكناكيس" في دراسته للخيال في الشعر الجاهلي على التفاعل بين الشاعر والطبيعة، وعلى العلاقة التي تبرز الجانب الإنساني في إحياء عناصر الطبيعة وانسنتها، فيرى أن العرب الذين توجهوا توجهًا كبيراً إلى وصف مشاهد الطبيعة، كانوا يتعاملون مع الطبيعة تعاملًا باردًا وموضوعيًا - في أغلب الأحيان - ولم ينفعلوا بها أو إنهم لم يسقطوا مشاعرهم الذاتية عليها^(١).

فهو لا ينفي الخيال عن الشعر الجاهلي وإن كان يرى أن الشعراء تعاملوا مع الطبيعة تعاملًا مباشرًا أو سطحيًا في أغلب الأحيان، إذ يستدل على ذلك ببعض الأمثلة التي تتجلى فيها فاعلية الخيال الخلاق في شعر الخنساء؛ من مثل قولها:

وأذكره إذا ما الأرضُ أمست هجولاً لم تلمع بالوميض^(٢)

أو قولها:

يذكُ رني طلوعُ الشمسِ صخرًا وأذكُ رهلكلَّ غروبِ شمسٍ^(٣)

(1) N. Rodokanakis, 'Al-Hansa' und ihre Trauerlieder ((Wien: Sitzungsberichte der philosophisch-historischen der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften 1904)), p. 19.

(٢) ديوان الخنساء: ٩٤.

(٣) ديوان الخنساء: ٨٩.

ثم يعلّق "رودوكناكيس" "إن الميل إلى الأنسنة لا يجوز إنكاره من الطبيعة الإنسانية فالخنساء الحزينة التي استبدّ بها الألم جعلت الأرض تشاركها ألمها" ^(١)، إذ تقول:

ضَلَّقتْ بي الأرضُ وانتقضتْ مَخارِمُها حتى تخاش عتِ الأعلامُ والبيدُ ^(٢)

وقد وقف "رودوكناكيس" عند أبيات الخنساء وعدّها مثلاً حياً على قدرة الشاعرة على إسقاط مشاعرها على الطبيعة، في قولها:

والشمسُ كاسفةٌ لِمَهْلكه وما اتَّ سقَّ القَ مَ رُ
والإنسُ تبكي وُ لَهَا والجنُّ تُسعدُ مَ نَ سمرُ
والوحشُ تبكي شجوها لمَّ أتى عنه الخبزُ ^(٣)

آراء المستشرق "فولفهارت هاينريش":

ناقش في كتابه "الشعر العربي والشعرية اليونانية" "Arabisch Dichtung und Griechische Poetik" خصائص الشعر العربي واتخذ من مقالة "تاويوسي كوفاليسكس" "محاولة لوصف الإبداع الأدبي العربي" أساساً لبيان نظريته إلى خصائص الشعر العربي. وفكرة "كوفاليسكس" تصف التفكير العربي بالتشتت والتناثر، فان هاينريش أخذ ذلك منطلقاً لوصف الشعر العربي أيضاً بالتفكك والتجزؤ، فيقول: "ففي الشعر الوصفي فإن البناء المفكك يتضّح بكلّ قوّة على الرغم من المساعدة التي يقدمها الموضوع الموصوف نفسه، ويبدو وكأنّ الشاعر العربي لم يستطع - مع كلّ الحدّة في معاينته - أن يلاحظ في موضوعات

^(١) Rodokanakis, p. 22.

^(٢) ديوان الخنساء: ٤٥.

^(٣) ديوان الخنساء: ٦٨.

وصفه أشياء أخرى غير الجزئيات الصغيرة والمهمة، إذ أنه يستهل ك ذكاءه الكلي الخارق لكي يبتكر أشكالاً لغوية متقنة لهذه المعانيات الجزئية، ولذلك فإن تداخل التركيب خاصة جوهريّة من خصائص القصائد العربية، فالقصيدة مزيج غير متلائم وليست كلّية عضوية^(١).

ووصف "هاينريش" الشعر العربي أو القصيدة الجاهلية بأنها ذات بناء جزئي مفكك اعتماداً على نظرية كوفالسكي، إنما هو تسليم منه لنفي الخيال عن الشعر الجاهلي، ويقول: "ان غياب الخيال يمنح الشعر الجاهلي طبيعته المميزة، ان الإبداع العربي الكلّي يتصف بغلبة المعايينة المطلقة على الخيال"^(٢).

آراء المستشرقّة الألمانية "ريناتا يعقوبي"

أم ا "ريناتا" فقد ناقشت الصورة الشعرية مناقشة مطولة في كتابها "دراسات عن شعرية القصيدة العربية الجاهلية" "Studien Zur Poetik der altarabischen Qaside" ووقفت عند عناصر الصورة وأنواعها المختلفة وترى : "إن الثروة الهائلة من الصور الشعرية هي أهم خاصية من خصائص أسلوب القصيدة الجاهلية، وتظهر هذه الثروة في المشاهد الوصفية بشكل لافت للنظر، لكن غزارة هذه الصورة لا تعني بالضرورة الحد الأقصى للتأثير الشعري"^(٣). وحاولت أن تعيد فقر الخيال الجاهلي إلى طبيعة البيئة الجاهلية، إذ تقول : "فالشاعر العربي يعيش في بيئة لم تستطع أن تقدم شيئاً ذا بال للخيال

(1) Wolfhart Heinrichs, Arabische Dichtung und Griechische Poetik ((Beirut: Herausgegeben vom Orient- Institut der deutschen morgenlandischen Gesellschaft, 1969)), p. 21.

(2) Heinrichs, p. 21.

(3) Renate Jacobi, Studien zur Poetik der altaraischen Qaside ((Wiesbaden: Franz Steiner Verlag GMBH, 1971)), p. 108.

الإبداع عند الشاعر، فالصورة كانت عبارة عن نبع حقيقي للتفصيلات التي كشف الشعر العربي في وصفها عن حدة عجيبة في المعاينة^(١).

وقد حاولت "ريناتا" ان تنفي أية قيمة عن الصورة الشعرية و أن تجرّدها من فاعليتها، إذ تقول : "ان الصورة كانت تستعمل ضمن وظيفتها الأصلية ولإعادة انطباع حسيّ، وأن العلاقة بين الصورة والشيء المحصور لا تقوم إلا على التطابق الخارجي .. فالعالم يبدو غير منظّم، فالإنسان والجمادات والنباتات والحيوانات، كلّ هذه الأشياء تجتمع مع بعضها البعض دون ترتيب منطقي، لذلك فإنه ليس غريباً إذا ما وجدت تشبيهات تجرح ذوقنا الجمالي على الرغم من الاختلاف في الأذواق، فهناك أشياء كثيرة تبدو لنا مُنفرة تجعل البدوي غير مبالٍ أو غير مكترث، أو ربما توقظ لديه مشاعر مقبولة"^(٢).

وقد اعتمدت "ريناتا" في ذلك بعض نماذج شعرية على أنها ينعدم فيها التسلسل في ترتيب الأشياء، وذلك عندما يشبه الشاعر الجماد بالحيوان والحيوان بالإنسان أو الإنسان بالحيوان^(٣). وقد تمثل ذلك في قول علقمة الفحل:

كَأَنَّ ابْرِيقَ هَمْ ظَبْيٍ عَلَى شَرْفٍ مُفَ دَمَّ بَسَبَ الْكَتِّ انْ مَلْثُومٌ^(٤)

أو قول عنتره:

فَتَرَى الذَّبَابَ بِهَا يَغْنِي وَحْدَهُ هَزَجًا كَفَعَلَ الشَّارِبِ الْمُ تَرَدُّمِ
غَرْدًا يَحْكُ ذِرَاعَ هَذِرَاعِهِ فَعَلَ الْمُ كَبَّ عَلَى الزَّرِّ نَادِ الْأَجْذَمِ^(٥)

(١) Jacobi, pp. 109-110.

(٢) Jacobi, p. 110.

(٣) Jacobi, p. 111.

(٤) ديوانه: ٧٠.

(٥) ديوانه: ١٩٧-١٩٨.

أو في قول امرئ القيس:

فبات على خدٍّ أحمَّ ومنكبٍ ِ وضجعتُ مثل الأسيرِ المكردسِ^(١)

آراء المستشرق "إيفالد فاغنر"

وثبت آراءه في كتابه "أسس الشعر العربي الكلاسيكي"

Grundzüge der der klassischen aeabischen Dichtunge: Die altarabische Dichtunge ((Darmstadt, 1987)).

في فصل عن الخيال والواقعية في الشعر الجاهلي، فيرى : "أنّ الشعر

الجاهلي كان في أغلبه شعراً واقعياً، ويوصف بأنه واقعي، لأن الشاعر يصف ما يستطيع أن يحسّه، ومن هنا تتركز الحسيّة في التفصيلات، فإذا وصفت الأشياء بشكل مفصّل، فإن السبب لا يعود إلى المعاينة الحادّة للعرب فقط، وإنما - أيضاً - إلى أنّ الأشياء الموصوفة كانت معروفة لدى السامع البدوي تماماً، كما هي معروفة للشاعر، لكن الشاعر يستطيع ان يقدم أشياء جديدة من خلال أسلوب التشبيه. وإذا وصف الشاعر أحداثاً فإن هذه الأحداث كانت معروفة لدى السامع، وكذلك فإن التفصيلات هي الأكثر أهمية"^(٢).

(١) ديوانه: ١٠٢.

(٢) Ewald Wagner, Grundzüge der klassischen arabische Dichtunge ((Darmstadt: Wiss enschaftliche Buchesellschaft, 1987)), p. 177.